- ٧ -

وغواية الأقليات

عندما ظهر الإسلام [١٣ق. هـ ٦١٠م] كان المشرق - باستثناء وسط شبه الجزيرة العربية - واقعًا تحت الاحتلال الروماني - الفارسي، والقهر الديني والسياسي والثقافي والحضاري، الذي استمر لعشرة قرون - من الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٤ق. م] في القرن الرابع قبل الميلاد.. إلى «هرقل» [٦١٠ - ٦٤١م] في القرن السابع للميلاد - ومأساة الاضطهاد الروماني والبيزنطي للنصرانية الشرقية لا تزال الحدث التاريخي الذي تؤرخ به الكنائس الشرقية حتى الآن، وتسميه «عصر الشهداء»!

ولذلك كان ظهور الإسلام، الذي يؤمن أهله بكل النبوات والرسالات والشرائع والكتب السماوية.. وكانت الفتوحات الإسلامية - التي دارت جميع معاركها ضد الروم والفرس - والتي حررت أقطار الشرق من هذا الاحتلال الاستعماري والقهر الحضاري، وحررت - مع الأرض - الضمائر والعقائد لشعوب الشرق من الاضطهاد الديني.. كان ذلك - بشهادة أهل تلك الديانات - إنقاذًا لعقائدهم من الإبادة الوشيكة.. وعقابًا

إلهيًا للرومان على هذا القهر والاضطهاد الذي مارسوه.. فبسيادة الدولة الإسلامية أقاليم الشرق، تم إنقاذ ديانات شعوبه.. وتُركوا وما يدينون، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.. فعاشت اليهودية والنصرانية في الدولة الإسلامية، وأسهم المتدينون بهما في بناء حضارة جديدة واحدة، هي الحضارة الإسلامية.. حتى أن هذه الحضارة لم تعرف في تراثها مصطلح «الأقليات»، وإنما عرفت مصطلح «الأمة»، التي جعل الله تنوعها إلى شعوب وقبائل، وملل ونحل وشرائع، وألسنة ولغات وقوميات سُنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل..

ولقد شهد بهذه الحقيقة ـ حقيقة الإنقاذ الإسلامي لديانات الشرق القديمة.. وبأن بقاء هذه الديانات إنما كان «هِبَة الإسلام» ـ شهد بها أهل تلك الديانات، في أقدم النصوص التاريخية التي عاصر أصحابها الفتوحات الإسلامية لتلك البلاد.

فالأسقف القبطي «يوحنا النقيوسي» ـ الذي عاصر الفتح الإسلامي لمصر ـ يقول ـ في كتابه الذي هو أقدم تأريخ لهذا الفتح ـ:

«إن الله، الذي يصون الحق، لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين ـ [العرب المسلمين: أبناء إسماعيل عليه السلام] ـ. ثم نهض المسلمون وحازوا كل مصر. وكان عمرو بن العاص يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما،

سلبًا أو نهبًا، وحافظ على الكنائس طوال الأيام»(٨).

وبطريرك الأقباط يومئذ ـ «بنيامين» [٣٩هـ ـ ٦٥٩م] ـ الذي طارده الرومان فهرب في الصحارى ثلاثة عشر عاما.. أحرق الرومان فيها أخاه انتقامًا من هربه!!.. أرسل إليه عمرو بن العاص [٥٠ ق. هـ ٤٣هـ/ ٥٧٤ ـ ٦٦٤م] عهد الأمان، واستقبله وأكرمه، وحرر له ولرعيته كنائسهم التي اغتصبها الرومان.. فعاد «بنيامين» إلى رعيته وكنائسه وأديرته، ودخل ـ في موكب الفرح والحرية ـ إلى الإسكندرية، في ظل التحرير الإسلامي لمصر ونصرانيتها.. ويصف الأسقف «يوحنا النقيوسي» ذلك، فيقول:

«ودخل الأنبا «بنيامين» بطريرك المصريين مدينة الإسكندرية، بعد هربه من الرومان ثلاثة عشر عامًا، وسار إلى كنائسه، وزارها كلها. وكان كل الناس يقولون: هذا النفي وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين.. وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر»(٩).

وتتكرر هذه الشهادات ـ على التحرير الإسلامي للضمائر والعقائد مع تحريره للأوطان ـ فيقول الأسقف «ميخائيل السرياني»:

«إن الإمبراطور الروماني لم يسمح لكنيستنا بالظهور ـ [أي لم يكن معترفًا بها!] ـ ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التي نهبت، ولهذا، فقد انتقم الرب منه. لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب

أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا في سلام»[١٠].

بهذه الحقيقة - حقيقة إنقاذ الإسلام للديانات الأخرى، والسلام الديني الذي حققه الفتح الإسلامي لأبناء تلك الديانات لأول مرة في تاريخهم - شهد الشهود من أهل تلك الديانات - وفي المقدمة منهم رجال الدين ! .. وعاش أهل تلك الديانات جزءًا من الأمة الواحدة، والرعية الواحدة للدولة الإسلامية عبر تاريخ حضارة الإسلام..

لكن الغواية الاستعمارية - إبان فترات الغزو الغربي، الذي حاول عبر هذا التاريخ إعادة اختطاف الشرق من التحرير الإسلامي والدولة الإسلامية - قد سعت - هذه الغواية - لتحويل «نعمة» التعددية الدينية - التي جعلها الإسلام سُنة وقانونًا - إلى «نقمة» وثغرات اختراق لأمتنا، من خلال بعض أبناء هذه الأقليات!

ولقد شهد الباحث والمؤرخ النصراني اللبناني «چورچ قرم» على هذه الحقيقة، عندما أشار إلى أن هذه الغواية الاستعمارية لأبناء هذه الأقليات النصرانية قد كانت من أهم الأسباب التي أحدثت توترات طائفية، وردود أفعال سلبية إزاء أبناء هذه الأقليات عبر تاريخ الإسلام.. فقال:

«إن هذا التوتر قد ارتبط بفترات التدخل الأجنبي في البلاد الإسلامية، وقام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة بالتعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة.. إن الحكام الأجانب - بمن

فيهم الإنجليز ـ لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية في أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب، وهذه ظاهرة نلاحظها في سوريا أيضًا، حيث أظهرت أبحاث «جب» [١٨٩٥ ـ ١٩٧١م] و«بولياك» كيف أن هيمنة أبناء الأقليات في المجال الاقتصادي أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين في دمشق سنة ١٨٦٠م وبين الموارنة والدروز في جبال لبنان سنة ١٨٤٠م و١٨٦٠م. ونهايات الحروب الصليبية قد أعقبتها، في أماكن عديدة، أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية ولا سيما الأرمن التي تعاونت مع الغازي..»[١١].

وإذا كانت إحدى مشكلات عصرنا وتحديات واقعنا المعيش، هي لعب الاستعمار الغربي «بورقة الأقليات» ـ حتى الأقليات القومية المسلمة ـ لزيادة تمزيق عالمنا الإسلامي على أسس دينية وعرقية وطائفية ومذهبية، فإن الدراما التاريخية تستطيع أن تستدعي إلى ثقافتنا المعاصرة هذه الصفحات التي لعب الاستعمار فيها مع أمتنا «بورقة الأقليات».. والتي مارس إبانها غواية شرائح من أبناء هذه الأقليات، وذلك لتقول هذه الدراما التاريخية للأمة ـ أقليات وأغلبيات ـ: إن عواقب الاستجابة لهذه الغواية كانت ردود فعل سلبية ومؤلمة وأحيانًا دامية.. وأن وحدة الأمة، التي تجعل الأقليات «لبنات» في جدار الأمن الوطني والقومي والحضاري، هي السبيل الآمن لتحقيق السلام الاجتماعي والحرية وكل حقوق المواطنة للجميع.. أما الغواية بالخيانة، التي يريد بها الاستعمار والصهيونية تحويل نعمة التعددية

إلى نقمة التشرذم، وإلى جعل هذا التنوع ثغرات اختراق لأمتنا وهويتنا الحضارية، فهو الكارثة والطامة الكبرى.. وعواقب فتنتها لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة!.. وإنما تعم بلواها الكثير من الأبرياء!..

إن عبرة هذه الصفحات التاريخية تقول: إن أمن وأمان الأقليات إنما يتحقق في الوفاق العام داخل إطار الأمة، وليس بالاستجابة لغوايات الاستعمار.. فالتدخل الأجنبي والحمايات الأجنبية، هو «سحابات سوداء» ليس لها دوام، وليس فيها ضمان لأمن أو أمان.. بينما الأمن والأمان قائم في حضن الأمة، وفي دفء الوحدة الوطنية والقومية والحضارية..

لقد تحدث مخطط «ديفيد بن جوريون» [١٨٨٦ - ١٩٧٣م] و«موشي شاريت» [١٨٩٤ - ١٩٦٥م] - في خمسينيات القرن العشرين - عن الثوابت الصهيونية في غواية الأقليات النصرانية في العالم العربي.. فقالا في هذا المخطط: «**إن إذكاء النار في مشاعر الأقليات المسيحية في المنطقة، وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال والتحرر من الاضطهاد الإسلامي - [كذا؟!] - هو عمل إيجابي، لما ينتج عنه من آثار تدميرية على المجتمع المستقر**»[١٢]!!

ولقد اعتبر «بن جوريون» أن تنفيذ هذا المخطط - اللعب بورقة الأقليات - هو الضمان لبقاء الكيان الصهيوني، المغروس قسرًا في جسد الأمة العربية، فقال: «**نحن شعب صغير، وإمكاناتنا ومواردنا محددة، ولا بد من اختزال هذه المحدودية في مواجهة أعدائنا العرب، من خلال معرفة**

وتشخيص نقاط الضعف لديهم، وخاصة العلاقات القائمة بين الأقليات الإثنية والطائفية، حتى نضخّم ونُعظّم هذه النقاط لتصبح معضلة يصعب حلها أو احتواؤها»[١٣].

ولقد استمرت هذه الغواية ـ الاستعمارية ـ الصهيونية ـ للأقليات؛ كي تسير على طريق الصهيونية، فتعض اليد التي أنقذت دياناتها، وحررت أوطانها، وجعلتها جزءًا أصيلًا من نسيج الأمة والحضارة، وأشركتها ـ لأول مرة ـ في صناعة الحضارة.. استمرت هذه الغواية ثابتًا من ثوابت الاستراتيچية الصهيونية، فخلصت أبحاث الندوة التي عقدتها مراكز البحث والسياسة ـ بدعوة من «مركز بارايلان للأبحاث الاستراتيچية» ـ التابع لجامعة بارايلان الإسرائيلية ـ في ٢٠ مايو سنة ١٩٩٢م... خلصت أبحاث هذه الندوة إلى الادعاء **«بأن الأقليات في العالم العربي هي شريكة لإسرائيل في المصير، ولا بد من أن تقف مع إسرائيل في مواجهة ضغط الإسلام والقومية العربية»**[١٤]!!

فالمخطط «القديم ـ الجديد» هو جعل هذه الأقليات ثغرات اختراق لوحدة الأمة وأمنها الوطني والقومي والحضاري، بدلًا من أن تكون ـ كما أرادها الإسلام وحضارته ـ لبنات في بناء الأمة، وجزءًا أصيلًا من نسيجها الوطني.. إنهم يريدون الأقليات «شريكًا للصهيونية»، وليس جزءًا من أمتها العربية.. الأمر الذي يجعل هذه الصفحات من التاريخ مادة للدراما التاريخية الموحية بالكثير لواقعنا الإسلامي الراهن.. وذلك إذا هي استدعت

إلى وعينا المعاصر هذا الوعي بصفحات التاريخ..

* * *

❑ صفحة الغواية الصليبية عند افتتحام القدس [٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م]

ففي الوقت الذي ذبح فيه الصليبيون وأحرقوا جميع من وقع في قبضتهم من مسلمي القدس.. في مذبحة دامت سبعة أيام، وحصدت سبعين ألفًا من المسلمين.. «**حتى كلّت أيدي الصليبيين من الذبح**»!! كما يقول المؤرخ النصراني ـ رجل الدين ـ «مكسيموس مونروند» في كتابه [تاريخ حرب الصليب] ـ **اجتذبت غوايتهم قطاعات من نصارى القدس «الذين كانوا يسيرون أمام الصليبيين بدلائل الاحترام والوقار، مرتلين معهم أناشيد الخلاص من الأسر»!!**

وسرت هذه الغواية إلى قطاعات من النصارى خارج القدس.. ذلك أن «**أخبار الانتصارات التي فاز بها الصليبيون، بامتلاكهم هذه البلاد، قد انتشرت بسرعة في الجهات القريبة إليها.. وهكذا شوهد المسيحيون متقاطرين جموعًا غفيرة إلى أورشليم، من أنطاكية، ومن الرها، ومن ترسوس، ومن كيادوكيا، ومن كيلكيا، ومن بين النهرين، ومن سائر أقاليم سوريا.. فالبعض سكنوا في أورشليم وما يحيطها، وغيرهم كانوا يزورون الأراضي المقدسة ويعودون إلى بلادهم، والجميع حاصلون على فرح عام، غير فاترين عن تقدمة الشكر لله والتقريظات لشجاعة الصليبيين وانتصاراتهم كجنود محقين ليسوع المسيح، الذين ـ أخيرا ـ**

أنقذوا قبر ابن اللّه مخلص العالم من أيدي غير المؤمنين»(١٥)!!

* * *

❑ وفي دمشق

ولقد تكررت صفحة الغواية الاستعمارية هذه لقطاعات من الأقليات النصرانية إبان الغزوة التترية لدمشق [٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م] - تلك التي قادها القائد التتري النسطوري «كُتبغا» - وكتب المقريزي [٧٦٦ - ٨٤٥هـ/ ١٣٦٥ - ١٤٤١م]: كيف «**استطال النصارى بدمشق على المسلمين، وأحضروا فرمانًا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم، فتظاهروا بالخمر في نهار رمضان، ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات، وصبوه على أبواب المساجد. وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب،وصاروا يمرون في الشوارع إلى كنيسة مريم، ويقفون به، ويخطبون في الثناء على دينهم، وقالوا جهرًا: «ظهر الدين الصحيح دين المسيح». وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم، فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرهم لنائب هولاكو - كُتبغا - فأهانهم، وضرب بعضهم وعظّم قدر قسوس النصارى، ونزل إلى كنائسهم، وأقام شعارهم**»(١٦)!

ثم يحكى المقريزي كيف أدت هذه الغواية والخيانة إلى ردود أفعال قاسية، وذلك بعد انتصار الدولة الإسلامية على التتار في عين جالوت [٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م]، عندما «**بادر أهل دمشق إلى دور النصارى فنهبوها**

وخربوا ما قدروا على تخريبه»(١٧)!

* * *

❑ وفي مصر

ولقد تكررت هذه الغواية الاستعمارية بالخيانة، لشرائح من أبناء الأقليات إبان الحملة الفرنسية على مصر [١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م].. ونجحت هذه الحملة الاستعمارية في غواية قطاعات من «أراذل القبط» الذين قادهم المعلم «يعقوب حنا» [١١٥٨ - ١٢١٦هـ/ ١٧٤٥ - ١٨٠١م] - الذي يسميه «الجبرتي» [١١٦٧ - ١٢٣٧هـ/ ١٧٥٤ - ١٨٢٢] «يعقوب اللعين»! - فجند فيلقًا قبطيًا، تزيّا بزي الجيش الفرنسي، وأصبح جزءًا من الحملة الاستعمارية يشارك في محاربة المصريين وإذلال المسلمين، بل وفي سجن علماء الأزهر الشريف!..

وفي تأريخ الجبرتي إشارات كثيرة لمظاهر هذه الغواية والخيانة، التي استفزت أغلبية الأمة، وأحدثت الآثار السلبية في جسد الوحدة الوطنية.. وفي هذه الإشارات نقرأ - مثلًا -: كيف **«ترفّع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود - [اعتمادًا على المستعمر] - فركبوا الخيول، وتقلدوا السيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس، ومشوا بالخيل، وتلفظوا بفاحش القول، واستذلوا المسلمين، مع عدم اعتبارهم للدين، إلى غير ذلك مما لا يحيط به الحساب، ولا يسطّر في كتاب. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»(١٨)!**

وكيف احتفلوا بانتصار جيش بونابرت في معركة «غزة» [١٢١٣هـ/ ١٧٩٩م] ـ إبان سعيه لاحتلال الشام ـ: **«فأظهر النصارى الفرح والسرور، في الأسواق والدور، وأولموا في بيوتهم الولايم، وغيروا الملابس والعمايم، وتجمعوا للهو والخلاعة، وزادوا في الشناعة»**(١٩)!

وعندما حل الجنرال «كليبر» [١٧٥٣ ـ ١٨٠٠م] محل بونابرت في قيادة جيش الاحتلال، عهد إلى المعلم يعقوب حنا ـ الذي أصبح «چنرالًا» في الجيش الغازي! ـ **«بأن يفعل بالمسلمين ما يشاء!.. فتطاولت النصارى، من القبط ونصارى الشوام، على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكانًا؟! وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين»**(٢٠)!!

الأمر الذي ترك جراحا غائرة في مجتمع ذلك التاريخ، وخلف رواسب في الكثير من صفحات التاريخ!.. لذلك، فإن الدراما التاريخية تستطيع أن تستدعي صفحات ذلك التاريخ، لتنفي عموم البلوى ـ بلوى الغواية والخيانة لسائر أبناء الأقليات ـ ولتقول للأقليات المعاصرة ـ من المسلمين وغير المسلمين ـ: إن الأمن والأمان.. وكذلك الشرف والكرامة، هو في الوحدة الوطنية والقومية والحضارية.. وليس في التعلق بحبال الغواية الاستعمارية، التي لا مكان لصفحاتها سوى في «مزبلة التاريخ»!..

* * *